

تصور الطبيعة البشرية

من منظور نفسي مقارن

مصطفى عشوي*

مدخل

كتبت عشرات الكتب حول موضوع الطبيعة البشرية وخاصة باللغات الأجنبية، ولكن أغلبها كان من منطلق فلسفي أو خلقي أو من كليهما، أو من منطلق ديني. ومن الواضح أن الدراسات التي تناولت هذا الموضوع من الناحية النفسية قليلة جداً حتى في الغرب، وغالباً ما تكون هذه الدراسات تمهيداً لدراسة نفسية الشخصية الإنسانية أو علم النفس الاجتماعي. ويورد بعض الباحثين مثل رايتسمان (Wrightsmann, 1992) أسباب عدم اهتمام النفسيين بهذا الموضوع إلا مؤخراً، وتتمثل أهم هذه الأسباب في:

- 1- كان علماء النفس الغربيون يعتقدون بأن تفسير السلوك بمفهوم "الطبيعة البشرية" عملية لا طائل من ورائها. وأن عامة الناس هم الذين يعتمدون إلى تفسير السلوك على أنه جزء من الطبيعة البشرية لا غير.
- 2- لم يكن علماء النفس الغربيون يهتمون بما يسمى بـ"عالمية السلوك الاجتماعي" كما تبين ذلك دراسات علم النفس بين الثقافات (المقارن) (Cross-cultural psychology) إلا مؤخراً.
- بل إنّ الاهتمام كان منصباً على دراسة السلوك الاجتماعي في إطار الثقافة الغربية بدلاً من دراسة السلوك البشري في إطار الانتماء للجنس البشري.

- 3- تركيز الباحثين النفسيين على دراسة علم النفس الاجتماعي التجريبي، وعلى دراسة المفاهيم التي يمكن تحديدها ودراستها دراسة إجرائية (عملية) بدلاً من المفاهيم الفضفاضة التي كان علم النفس الغربي

* دكتوراه في علم النفس من معهد رنسلينر بنيويورك، الولايات المتحدة الأمريكية سنة 1983م، أستاذ في قسم علم النفس بالجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا.

يتحاشى دراستها. وهذا ما جعل البحث المخبري هو السائد في الدراسات النفسية الغربية بوصفه جزءاً مهماً من الدراسات (الإمبيريقية) بأنواعها: الوصفية والتجريبية.

ومهما يكن، فإن الباحثين الغربيين سواء كانوا فلاسفة أم اجتماعيين أم نفسانيين قد أصبحوا يولون موضوع "الطبيعة البشرية" اهتماماً متزايداً. وهذا ما يتجلى من الدراسات العديدة التي كتبت مؤخراً حول هذا الموضوع مثل كتاب Stevenson سنة 1990، وكتاب Wrightsman سنة 1992 وكتاب Schultz سنة 1994. وقد درس هؤلاء الكتاب موضوع الطبيعة البشرية من زوايا مختلفة بعضها فلسفي، وبعضها "سيكولوجي" أو "سوسيولوجي" وبعضها الآخر "أنثروبولوجي" وتطوري.

وكتبت أيضاً باللغة العربية ومن المنظور الإسلامي بعض الدراسات والكتب في هذا الموضوع سواء من منظور فلسفي، أم ديني، أم أخلاقي، أم نفسي أم من منظور علم الإنسان (الأنثروبولوجية). ومن هذه الكتب: كتب العقاد، بنت الشاطيء سنة 1982، وبركات أحمد 1981، وأمير سنة 1984، والفاروقي 1984، وسيد مرسي سنة 1988، وأكبر أحمد سنة 1990، والعاني سنة 1995.

وتمثل هذا المقال إسهاماً في هذا المجال بحيث تشكل هذه الدراسة تمهيداً للدراسات النفسية من منظور إسلامي إذ أنها قامت على دعامتين:

1- محاولة فهم الطبيعة البشرية كما جاء ذلك في بعض الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث الشريفة.

2- اعتماد منهج مقارنة بين المنظور الإسلامي والمنظور الغربي للطبيعة البشرية من خلال تصورات وافتراضات أوردها شولتز (1994) وغيره من الباحثين الغربيين، ومن خلال تصورات أخرى أضفتها للأبعاد المقترحة من طرف شولتز، وغيره من الباحثين. وقد اخترت التصورات التي أوردها شولتز لسببين: الأول، يتمثل في جمعه ستة أبعاد ضمن تصور يتضمن الموضوع ونقيض الموضوع مثل الحرية والجبرية، ويتمثل السبب الثاني في قيام شولتز بجمع وإيراد مختلف آراء علماء النفس الغربيين وتصوراتهم حول هذه الأبعاد مما يسهل علينا عمليتي المراجعة والمقارنة.

الشخصية من المنظور الغربي

طرح شولتز (1994) في كتابه نظريات الشخصية عدة أسئلة تتعلق بطبيعة "الشخصية البشرية"، مبتدئاً كتابه على عدم اتفاق علماء النفس الغربيين على نظرية واحدة للشخصية. ولذا فقد عنون كتابه نظريات الشخصية بدلاً من وضع عنوان "نظرية الشخصية" مثلاً. وقد أكد شولتز بأن تصور الطبيعة البشرية الذي يقدمه منظراً ما، يعد أهم جانب في أية نظرية حول الشخصية.

أورد شولتز في كتابه المذكور 18 نظرية حاول جمعها في تسع فئات أو اتجاهات كبرى حيث بيّن أن لكن اتجاه نظري من هذه الاتجاهات افتراضاته وطرق بحثه، وتحديد مفهوم الشخصية وتصوره لأبعاد الشخصية وخصائص الطبيعة البشرية. وستكون هذه الاتجاهات محور المقارنة فيما بعد.

قدم شولتز عدة حجج لضرورة دراسة موضوع الشخصية، ومن أهم هذه الحجج تأكيده على أن أهم المشكلات التي تعانيها البشرية حالياً، كالجماعة والتلوث والجريمة والإدمان، سببها "البشر أنفسهم".

ومما استشهد به شولتز -في هذا المجال- قول ماسلوا (1957) وهو صاحب نظرية في الشخصية ومفاد قوله هو: "إذا طوّرتنا الطبيعة البشرية فإننا نطوّر كل شيء، إذ بذلك نزيل أهم أسباب الفوضى في العالم".

أما شولتز نفسه فيؤكد: "إنه بالفهم الصحيح، فقط، لأنفسنا والذين من حولنا نستطيع التوافق مع مشكلات الحياة العصرية بشكل أفضل، وأن هذا أهم من إنتاج أسلحة جديدة أو تحقيق انتصارات جديدة في ميدان التكنولوجيا. وقد بيّن التاريخ عدة مرات بأن التطور التكنولوجي قد يؤدي إلى عواقب خطيرة عندما يستعمل من طرف أشخاص بخلاء وأنانيين وجبناء وغليظي القلوب".

وحيث إن أعظم أمل للبشرية -كما يشير إلى ذلك شولتز- يتمثل في تحسين فهمها لنفسها، فإن دراسة الشخصية قد تكون أهم إسهام لعلم النفس في إنقاذ البشرية. ولذا يكتسب موضوع الطبيعة البشرية من منظور مقارن أهمية قصوى من الناحيتين: النظرية والتطبيقية.

فهل يستطيع علم النفس عامة وعلم النفس في الغرب خاصة أن ينقذ البشرية من الأخطار التي تتعرض لها حالياً أو التي قد تتعرض لها في المستقبل في هذه الحياة الدنيا؟

وهل لعلم النفس عامة وللإسلامي في علم النفس خاصة، أي: أهمية في إنقاذ البشرية في الحياة الدنيا وفي الآخرة؟ هذان سؤالان لا أزعم بأنني سأجيب عنهما، بل الغرض من طرحهما تبيان أهمية علم النفس في فهم الطبيعة البشرية، وفي فهم الشخصية، وبالتالي في إمكانية إسهام هذا الفهم في حل بعض مشكلات البشرية.

وعليه، يستحسن استعراض تصور إسلامي للطبيعة البشرية من خلال خصائص الطبيعة البشرية التي اقترحها شولتز لتصور "الشخصية"، ومن خلال أبعاد إضافية اقترحتها اجتهاداً في هذا الميدان؛ مع التأكيد على أن هذا التصور نسبي تماماً لأنه يتعلق باجتهاد بشري، بل إن شولتز نفسه قد أكد في كتابه المشار إليه أعلاه أن النظريات النفسية التي وضعت حول الشخصية قد اختلفت فيما بينها في الإجابة عن الأسئلة المتعلقة بالخصائص الآتية، ومدى تأثيرها في الطبيعة البشرية والشخصية الإنسانية: -الحرية أم الحتمية؟- الوراثة أم البيئة (المحيط)؟ -الماضي أم الحاضر؟ - التفرد والتمايز (uniqueness) أم العالمية (universality)؟ -التوازن أم النمو؟ - التفاضل أم التناوؤ؟

لقد ارتأيت تقديم تصور إسلامي لهذه الأبعاد وفق فهمي لبعض الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة مع إضافة أبعاد أخرى غفل عنها شولتز وغيره من الباحثين وخاصة الغربيين منهم. -حسب اطلاعي المتواضع-، بحيث تشكل هذه الأبعاد والخصائص من منظور مقارن -كما سيأتي ذلك فيما بعد- إضافة للفكر البشري في تصور خصائص الطبيعة البشرية، وفي فهم الشخصية الإنسانية.

خصائص الطبيعة البشرية من منظور إسلامي

لقد تعمدت وضع العنوان بهذا الشكل "خصائص الطبيعة البشرية من منظور إسلامي" وليس "خصائص الطبيعة البشرية من المنظور الإسلامي"، حتى أبين أن هذا التصور نفسه عبارة عن تصور نسبي

يتعلق بفهمي -لا غير- للنصوص، وحتى لا أغلق باب الاجتهاد في هذا المجال الحيوي الذي ينبغي تكاتف الجهود فيه مثل باقي الميادين. وبودي أن أشير إلى أن التصور الإسلامي للطبيعة البشرية وخصائصها ولشخصية الإنسان تصور حيوي شامل من الصعب اختزاله. وكل عمليات الاختزال التي نقوم بها من خلال وضع تصورات فرعية لهذا التصور الشامل إنما بهدف تيسيره وتقريبه للأفهام، وبهدف اعتماده أرضيةً أو إطاراً نظرياً لعمليات التنظير والبحث العلمي في مختلف الميادين الإنسانية والاجتماعية.

وينبغي أن أشير إلى أن المقارنة هنا هي من باب مقارنة النسبي (موقف علماء النفس الغربيين) بالنسبي (فهمي الإسلامي)، وليس من باب مقارنة المطلق بالنسبي، وهذا رغم معرفتنا بأن علماء النفس الغربيين ينطلقون في الأصل من خلفيات دينية أو فلسفية غالباً ما يخفونها رغم تأثرهم بها بصفة شعورية أو لا شعورية.

وينبغي التأكيد أن هذا التصور النظري الذي ينطلق من فهم النصوص الإسلامية ينبغي أن يدعم بحوث (إمبريقية) باستعمال عينات من المسلمين مع مراعات العمر والمستويات التربوية (التعليمية) والجنس وغير ذلك من المتغيرات الأساسية؛ وذلك لدراسة العلاقة بين التصورات النظرية والسلوك العملي الذي ينبثق أصلاً من هذا التصور النظري بشكل أو بآخر. وإلى جانب هذا التأكيد ينبغي أن تهتم بالجوانب الآتية:

أولاً: لوضع تصور إسلامي حول خصائص الطبيعة البشرية وحول الشخصية بوصفها مفهوماً نفسياً حديثاً ينبغي توضيح الموقف الإسلامي حول ثلاثة أبعاد كبرى تتفرع عنها بطبيعة الحال أبعاد فرعية، وهذه الأبعاد الكبرى هي: 1- خلق الإنسان، 2- حياة الإنسان، 3- مصير الإنسان (في الآخرة).

ثانياً: ينبغي دراسة الإنسان من المنظور الإسلامي من خلال ثلاثة أبعاد أخرى ترتبط بكل واحد من الأبعاد المذكورة أعلاه ارتباطاً وثيقاً؛ بل قد تؤثر فيها أو تتأثر بها؛ وإن كانت العلاقة بين هذه الأبعاد ليست بالضرورة علاقة سببية بل قد تكون علاقة ارتباطية بالمفهوم الإحصائي للكلمة.

وهذه الأبعاد هي: البعد الروحي، البعد (الفيزيائي-البيولوجي)، والبعد السلوكي.

1- البعد الروحي: والمقصود بالجانب الروحي في هذا المقام هو "الجانب الإيماني"؛ أي: الإيمان بالله وملائكته ورسله وكتبه واليوم الآخر وبالقضاء والقدر خيره وشره. وهذه هي أركان الإيمان التي لا مرء فيها ولا جدال. ولكن الإيمان هو مرتبة أعلى من مرتبة الإسلام من جهة؛ وهو ما وقر في القلب وصدقه العمل من جهة أخرى. ولا مجال -في الإسلام- للحديث عن الإيمان المنفصل عن العمل والسلوك. وقد نعى القرآن الكريم على المؤمنين الاكتفاء بالقول دون العمل حيث يقول المولى سبحانه وتعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ كَبِرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ (الصف: 2-3). وإن استقرأ القرآن الكريم يوضح لنا أن الآيات التي تتحدث عن الإيمان كلها مقترنة بالعمل. ولا مجال في الإسلام للحديث عن الإيمان حديثاً مجرداً كقول بأن الإيمان هو ما وقر في القلب وإقرار باللسان وتصديق بالعمل فنكتفي بالاستشهاد بحديث رسول الله ﷺ: "الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة فأفضلها لا إله إلا الله، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان" (متفق عليه). هذا هو المعنى الذي قصدناه هنا عند استعمالنا للجانب الروحي. أما الجانب الغيبي المتعلق بالإيمان فذلك بعدد أساسي، ولكن لا يمكن قياسه بل هو مما لا يعلمه إلا الله تعالى.

2- البعد التكويني (الفيزيائي-البيولوجي): ينص القرآن الكريم أن الإنسان الأول (آدم) قد خلق أصلاً من طين.

قال تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ (السجدة: 7).

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ (المؤمنون: 12).

وفي الواقع فقد ورد تأكيد القرآن الكريم على بدء خلق الإنسان من طين سبع مرات.

أما أصل التناسل عند الإنسان فهو النطفة كما جاء ذلك صراحة في سورة "الإنسان" وسورة "القيامة".

وتمضي عدة آيات في القرآن الكريم تصف البعد (الفيزيائي-البيولوجي) لخلق الإنسان سواء في المرحلة الجنينية (في الرَّحْم)، أو في مختلف مراحل العمر.¹

- ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِيَّكَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (سورة الأحقاف: 15).²

كما وصف القرآن الكريم خلق السمع والبصر للإنسان وغير ذلك من الخصائص والوظائف الجسمية يقول تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ (البلد: 7-10).

3- **البعد السلوكي:** إن موضوع علم النفس الحديث هو دراسة السلوك بالمعنى العام للكلمة؛ فالتفكير سلوك والتذكر سلوك وكذلك الكتابة سلوك وأي نشاط يقوم به الإنسان هو سلوك؛ سواء كان سلوكاً يسيراً أم سلوكاً معقداً وسواء تعلق بالعبادات أم بالمعاملات.

وفي الواقع، إنَّ موضوع الإنسان تربية وتهذيباً وتقويماً وتعديلاً وعلاجاً وتغييراً هو هدف الرسائل السماوية لتحقيق العبودية لله، وأن دراسة هذا السلوك انطلاقاً من الملاحظة والتجريب والتحليل والاستنتاج هو ميدان فروع علم النفس المختلفة.

وموضوع القرآن الكريم من أول آية إلى آخر آية منه هو سلوك الإنسان في هذه الحياة الدنيا ومصيره -بناء على سلوكه- في الدار الآخرة.

والملاحظ أن شعب الإيمان كلها -فيما عدا أركان الإيمان- تتعلق بالسلوك والمعاملة، بل إن العبادات الأساسية في الإسلام كالصلاة والصيام والزكاة والحج كلها تعبير سلوكي ذو جانبين: داخلي وخارجي؛ وروحي ومادي؛ ويشكل هذا التعبير عملية تفاعلية وتكاملية هدفها تحقيق الاعتدال والتوسط والتوازن في

¹ انظر الآيات الآتية: الإنسان: 1-2، القيامة: 37-40.

² انظر الآيات الآتية: البقرة: 233، النحل: 70، الحج: 5، الاحقاف: 15؛ وانظر أيضاً الآيات الآتية: البقرة: 233.

سلوك الإنسان المسلم والمؤمن. بل إن الإحسان الذي يمثل درجة أعلى من الإيمان ليس إلا ارتقاء بالسلوك إلى درجة أعلى من السلوك في مستوى الإيمان؛ بحيث يعبد المحسن ربه وكأنه يراه، وإن لم يكن يراه فإنه يعتقد جازماً بأن الله يراه.

وإذا كان الباطن لا يعلمه إلا الله، فإن الظاهر من السلوك هو ميدان علم النفس. ومهما يكن من أمر، فإنه يكفي من الناحية الإسلامية الحكم بالظواهر، والله يتولى السرائر؛ وفي هذا المعنى يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا رأيتم الرجل يرتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان". وبالعكس، فإن الباطن لا يغني عن الظاهر؛ وذلك كارتكاب السيئات عمداً وتسويغها بأن النية صالحة، وإنما الأعمال بالنيات إذا كانت النية صالحة ولم تؤد إلى إساءة عمدية.

ووفق هذا التحديد لمفهوم السلوك ولمفهوم البعد الروحي؛ فإني أعتقد بأن هناك فرقاً بين مفهومي "البعد الروحي" و"البعد الغيبي".

إن تحديد علم النفس الحديث للسلوك قاصر نوعاً ما لأنه لا يراعي البعد الإيماني القائم على النية، إلا أن علم النفس الحديث قد أصبح مؤخراً يولي اهتماماً أكبر لتأثير الجوانب المعرفية (العقلية) في السلوك، بل وحتى للجانب الروحي وإن كان هذا الاهتمام ما يزال محدوداً جداً.

وعليه، فإننا نضيف إلى هذين البعدين -السلوكي والعقلي- بعداً آخر نصطلح عليه بالبعد الإيماني في السلوك ودور النية في هذا البعد، والأجر الذي يحصل عليه الفرد عندما يشرع في سلوك ما انطلاقاً من موقف إيماني.

وفي هذا المعنى يقول الشاطبي: "... إنَّ الأعمال بالنيات، والمقاصد معتبرة في التصرفات، من العبادات والعادات. والأدلة على هذا لا تنحصر، ويكفيك منها أن المقاصد تفرق بين ما هو عادة وما هو عبادة؛ وفي العبادات بين ما هو واجب وغير واجب؛ وفي العادات بين الواجب والمندوب، والمباح والمكروه والمحرم، والصحيح والفساد، وغير ذلك من الأحكام. والعمل الواحد يقصد به أمر فيكون عبادة، ويقصد به شيء آخر فيكون كفرًا؛ كالسجود لله أو للصنم. وأيضاً فالعمل إذا تعلق به القصد تعلق به الأحكام

التكليفية. وإذا عرى عن القصد لم يتعلق به شيء منها؛ كفعل النائم والغافل والمجنون". (الشاطبي: الموافقات، مجلد 2، ص: 323-324).

وإذا كانت النية أساسية في التعبد؛ فإن دراسة السلوك من الناحية النفسية لا تكون -أساساً- من خلال دراسة النية أو النوايا بل من خلال السلوك الملاحظ، ومن خلال نتائجه أو عواقبه وإن كانت النية أو القصد في حد ذاته سلوكاً باطنياً يمكن الوصول إليه عن طريق الاستجواب والمقابلة وغير ذلك من طرق وتقنيات البحث النفسي، بل إن السلوك نفسه غالباً ما يكون انعكاساً للنوايا.

البعد الروحي

يقصد بالجانب الروحي غالباً في الدراسات الإسلامية "الإيمان والعبادات" وتأثيرها في السلوك... وقد بيّنا أن الإيمان بضع وسبعون شعبة وأنه يزيد وينقص؛ وبالتالي فإن هذا الجانب قابل للدراسة الموضوعية القائمة على الملاحظة والقياس، والوصف والتجريب.

البعد الغيبي

يقصد بهذا المفهوم -حسب فهمي- الإيمان بجوانب لا ينبغي للمسلمين أن ينشغلوا بها كثيراً بل يكفي الإيمان بها كما جاءت في القرآن الكريم والحديث الشريف؛ وذلك مثل الإيمان بالبعث وبالجنة والنار وبالملائكة والجن، ونفخ الروح، ويغنيها هذان المصدران عن البحث في هذا الميدان.

ومن خلال تأملي في القرآن الكريم فإنني لم أجد آيةً واحدة تحضّ المسلمين على إعمال النظر في الجوانب الغيبية بل إن القرآن كله دعوة لإعمال النظر في مخلوقات الله تعالى (الأرض والجبال والسحاب والنجوم والحيوانات والإنسان نفسه) ... للاستدلال بها على وجود الخالق أولاً، ولتسخيرها لخدمة الإنسان ثانياً. وعليه، فإن "الروح" بالمعنى الغيبي للكلمة ليست مجال إعمال النظر والبحث العلمي ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ﴾

الرُّوحُ قُلُّ الرُّوحِ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ (الإسراء: 85). أمّا ثالثاً فإن هذا التصور لمختلف أبعاد الطبيعة البشرية يمتد - حسب تقديرنا الزمني - ضمن إطار ذي ثلاثة أبعاد أخرى هي: الماضي والحاضر والمستقبل.

وبودي أن أنبه أيضاً إلى أن المقارنة هنا بين التصور الإسلامي والتصورات الغربية للطبيعة البشرية هو من باب مقارنة فهمي النسبي للمنظور الإسلامي بالفهم النسبي لعلماء النفس الغربيين للطبيعة البشرية والشخصية الإنسانية من منطلقاتهم الفلسفية وخلفياتهم الدينية: المسيحية واليهودية، وليس من باب مقارنة المطلق بالنسبي والعلم الرباني بالاجتهاد الإنساني.

وفيما يلي بعض القضايا الأساسية التي أود أن أقارن فيها المواقف النفسية الحديثة حول خصائص الطبيعة البشرية والشخصية الإنسانية مع الموقف الإسلامي كما أفهمه من خلال القرآن الكريم أساساً، ومن خلال بعض الأحاديث الشريفة، وأمل أن أوسع هذه الدراسة فيما بعد لتصبح مرجعاً أساسياً في محاولة فهم موضوع الطبيعة البشرية وخصائصها، والشخصية الإنسانية وأبعادها من منظور نفسي مقارن؛ وذلك بالرجوع إلى القرآن الكريم والحديث الشريف وأمّهات كتب التفسير والحديث والتراث الإسلامي، وبالرجوع أيضاً إلى المصادر الأساسية للفكر الغربي التي قامت عليها التصورات النفسية حول خصائص الطبيعة البشرية والشخصية الإنسانية:

- 1- هل الإنسان مطلق الإرادة في الاعتقاد والرأي والسلوك أم مجبر؟
- 2- هل الإنسان خالد أم مصيره العدم؟
- 3- هل الإنسان ذو بعدين (مادي-روحي) أم ذو بعد واحد (مادي فقط)؟
- 4- هل الإنسان ذو طبيعة خيِّرة مطلقاً أم ذو طبيعة شريرة مطلقاً أم أن طبيعته تتجاذبها قوى الخير والشر معاً؟
- 5- هل سلوك الإنسان مبني على النيات والأعمال أم على النيات فقط أم على الأعمال فقط؟

6- هل ماضي الإنسان أكثر تأثيراً في سلوكه أم حاضره أم مستقبله أم كل ذلك؟

7- هل التفاؤل أساس الطبيعة البشرية أم التشاؤم؟

8- هل يسعى الإنسان إلى تحقيق التوازن أم هو في نحو مستمر؟

9- هل المحيط أو البيئة (التعلم) أقوى تأثيراً في سلوك الإنسان أم الوراثة؟

10- هل كل إنسان متفرد بخصائصه وشخصيته أم أن هناك عالمية وشمولية في خصائص طبيعته

البشرية وأبعاد شخصيته؟

إن الإجابة عن هذه الأسئلة أساسية في تصور نموذج للطبيعة البشرية من منظور إسلامي. وعليه، فإنني أبدأ بالإجابة عن سؤال تلو الآخر مبيّناً هذا التصور مع إجراء مقارنات بينه وبين تصورات أخرى في إطار علم النفس الحديث وخاصة في إطار نظريات الشخصية الأساسية، التي أوردها شولتز في كتابه **نظريات الشخصية (1994)** حيث سأعتمد على هذا الكتاب في إيراد مختلف التصورات التي تمثل أهم النظريات النفسية في ميدان "سيكولوجية الشخصية" وهي: التحليلية، والسلوكية، والسّمات، والإنسانية والمعرفية مع الإشارة إلى أن هذه النظريات موجودة في أغلب كتب علم النفس العام وفي كل كتب علم نفس الشخصية الحديثة، ولا داعي للرجوع إلى أكثر من مصدر في هذه الحالة.

الحرية أم الجبرية؟

لقد خلق الله آدم في أحسن تقويم وصوره فأحسن تصويوه وعدّله، وزوده بالعقل وكرمه على كثير ممن خلق وفضله تفضيلاً، وعلمه ما لم يكن يعلم (الأسماء)، وأعطاه الحرية المطلقة في الجنة بشرط واحد؛ وهو عدم الأكل من الشجرة وأخفق آدم في الاختبار. ولعل هدف هذا الاختبار هو إفهام آدم أن علمه محدود، وأنه عرضة للنسيان وأنه عرضة للافتتان.

وإذا كان الإنسان محدود العلم فلا بد أن يكون محدود الحرية، وإذا كان محدود الحرية فلا بد أن يكون محدود العلم. ومجرد وضع شرط واحد لآدم في الجنة دليل على أن حريته كانت ذات حدود، كما أن مجرد نسيانه وأكله من الشجرة دليل على أن علمه محدود أيضاً.

لقد عولج موضوع الحرية والجبرية في إطار علم الكلام واختلفت الفرق الإسلامية حول الموضوع اختلافاً كبيراً إلى حد التناقض، فعلى من يريد التفصيل في الموضوع أن يرجع إلى أمهات الكتب في هذا المجال.

أما في هذا المقام فيكفي أن أؤكد أن استقراء القرآن الكريم يوضح لنا أن الحرية مقترنة بتحمل تبعاتها أو المسؤولية التي تنبني عليها، وأن الإنسان وإن كان حرّاً في الاختيار بين الإيمان والكفر إلا أنه يتحمل تبعات اختياره، كما أنه حر في سلوكه ويتحمل تبعات سلوكه الاختياري.

وفي إطار هذا المعنى، يقول الله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّتُمْ أَعْتَدْتُمْ لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَعِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ (الكهف: 29).

إن الإيمان أو الكفر سلوكان مرتبطان في الواقع بحرية العقل وحرية الإرادة؛ إذ لا يمكن أن نتحدث عن حرية الإرادة دون القدرة على الاختيار بين الإيمان والكفر بالمعنى العام للكلمتين وبالمعنى الديني الاعتقادي لهما أيضاً. ولا يمكن الحديث عن المسؤولية دون حرية الإرادة والعقل، وحرية التصرف والسلوك. ولذا رفع القلم عن ثلاث - كما جاء في الحديث الشريف - عن الصبي حتى يحلم، وعن النائم حتى يستيقظ، وعن المجنون حتى يفيق.

ولربما هذه الحرية في التصرف والسلوك ابتداءً بالإيمان وانتهاءً بالكفر وما بينهما من سلوك إيجابي وسلبي (دون إصدار حكم قيمي مطلق) هي التي توضح لنا لماذا وصف القرآن الكريم الإنسان بصفات متباينة؛ بعضها إيجابي وبعضها سلبي.

وعليه، فإذا كان الإنسان حراً فإنه يتحمل تبعاً لذلك مسؤولية حريته؛ فلا يمكن أن تكون هناك مسؤولية دون حرية، ولا حرية دون مسؤولية. ورغم هذه الحرية المطلقة في الاعتقاد والسلوك فإن القرآن الكريم يبين للإنسان بكل وضوح أن قدراته محدودة، وبالتالي فإن حريته محدودة أيضاً في بعض المجالات؛ فالإنسان لا يختار متى يولد ﴿... حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا...﴾ (الأحقاف: 15)، ولا يختار متى وأين يموت: ﴿... فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (الأعراف: 34)، و ﴿... وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ (لقمان: 34).

وفي الوقت الذي نلاحظ فيه دعوة القرآن الكريم لاعتماد الأسباب وسن الله في المجتمع والكون بصفة عامة، فإن الإنسان المسلم يعتقد اعتقاداً جازماً أن هناك مسبب الأسباب الذي لا سبب له وهو الله؛ وهو المتحكم في كل شيء، وهو المتوكل عليه، وإليه ترجع الأمور، ومشيئته سبقت كل شيء. ولذا فإن سلوك المسلم لا ينبغي أن يكون بمعزل عن هذا التصور وإن كان عليه الأخذ بالأسباب. وفي هذا المعنى يقول تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ عَدًّا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾ (الكهف: 23-24).

فما هو موقف النظريات النفسية من هذا الموضوع؟

إذا فحصنا نظريات الشخصية في علم النفس الحديث فإننا نجد تبايناً في تصور هذا الموضوع؛ فالنظرية الفرويدية (التحليلية) مثلاً تؤكد عدم حرية الإنسان بل تؤمن بالحتمية؛ أي: أن الإنسان حسب فرويد (1856-1939) مقيد باللاشعور؛ وهو في صراع دائم مع القوى اللاشعورية مثل الغرائز (الجنس والعدوانية مثلاً) ولا ينتصر عليها أبداً. وينحصر دور الأنا -حسب هذا التصور- في التوفيق بين ضغوط الهوى (الغرائز والشهوات) وضغوط الأنا الأعلى (الضمير والأخلاق). ويشذ عن هذا الموقف، الذي يتخذه فرويد حول حرية الإنسان، إريك فروم (1900-1980)؛ الذي وإن كان ينتمي إلى المدرسة التحليلية إلا أنه لا يتفق مع بعض طروحات فرويد. ومن بين ذلك موقفه الإيجابي من حرية الإنسان؛ فهو يرى أن الشخصية لا تتحدد بتأثير العوامل الاجتماعية والسياسية والاقتصادية فقط بل يملك الإنسان خصائص نفسية يستطيع بها تشكيل طبيعته (شخصيته) ومجتمعه معاً.

أما النظرية السلوكية فتقف موقف النظرية التحليلية في هذا المجال حيث تؤمن بالحتمية. إنَّ سكينر (1904-1990) -رائد السلوكية الحديثة- وإن كان لا يتفق مع فرويد في وجود قوى داخلية تتحكم في الشخصية، فإن الإنسان في سلوكه حسب رأيه مثل الآلة المضبوطة والمرمجة التي تم تحديد نشاطها ووظيفتها مسبقاً. وعليه، فإن الإنسان لا يملك حرية التصرف ولا العفوية في السلوك؛ إذ أن سلوكه مقيد بالمشيرات أي المنبهات التي يتلقاها من محيطه.

وإذا كانت النظريتان: التحليلية والسلوكية لا تؤمنان بحرية الإنسان رغم تباين منطلقاهما النظرية فإن نظرية السمات التي يمثلها النفساني الأمريكي المعروف جوردن ألبرت (1897-1967) تقف بخصوص هذا الموضوع موقفاً معتدلاً؛ حيث ترى أن سلوك الإنسان محدد بالسمات والاستعدادات الشخصية التي من الصعب تغييرها بعد تشكلها.

وإذا استعرضنا موقف النظرية الإنسانية -في هذا المجال- فإننا نجد روادها مثل أبراهام ماسلو (1908-1970) يؤكدون بأن الإنسان حرُّ الإرادة؛ إذ في استطاعته أن يختار كيفية إشباع حاجاته وتحقيق قدراته. وعليه، فإن الإنسان حسب هذه النظرية مسؤول عن درجة أو مستوى النمو الذي يحققه.

أما موقف النظرية المعرفية التي يمثلها سيكولوجيون عصريون وعلى رأسهم جورج كيلبي (1905-1970) فترى أن الإنسان حر في اختيار سلوكه والتحكم فيه وتعديله إن استدعت الحاجة إلى ذلك، بل هو حر في مراجعة مفاهيمه القديمة وتعويضها بمفاهيم جديدة. إن توجه الإنسان حسب هذه النظرية هو دائماً نحو المستقبل.

وأخيراً فإن نظرية التعلم الاجتماعي التي يمثلها ألبرت باندورا (1925-...) تقف موقفاً معتدلاً من موضوع حرية الإنسان؛ حيث يرى باندورا أن الناس ليسوا أشياء لا قوة لها ومراقبة من طرف قوى المجتمع، كما أنهم ليسوا أحراراً بصفة مطلقة تمكنهم من القيام بأي شيء يختارونه، بل إن الإنسان والمحيط يتبادلان التأثير؛ ويؤثر كل منهما في الآخر.

وباختصار فإننا نلاحظ - في إطار النظريات النفسية الحديثة- تبايناً كبيراً حول موضوع حرية الإنسان؛ وأغلب النظريات تقف موقفاً معتدلاً حيث تؤكد أن سلوك الإنسان وإن كان يصدر عن إرادة إلا أن هناك قوى وراثية (بيولوجية) وقوى اجتماعية (محيطية، بيئية) تؤثر في سلوك الإنسان وتوجهه دون إرادة الإنسان. وبالفعل، فإن معظم علماء النفس يتفقون على أن أهم محددات الشخصية هي المحددات (البيولوجية) والمحددات المحيطية البيئية.

وينبغي الإشارة هنا إلى إهمال كل هذه النظريات لمشيفة الله تعالى في توجيه السلوك وتحديد مصير الإنسان! وإلى إهمال المحددات الروحية (الإيمان بالله مثلاً) وتأثيرها في الشخصية والسلوك. ولعل تدارك هذا النقص يكون بالرجوع إلى التصور القرآني الذي أوردناه آنفاً عن حرية الإنسان، وينبغي لمن يريد مزيداً من التفصيل أن يرجع على آراء الفرق الإسلامية المختلفة مثل المعتزلة والأشعرية والقدرية وغيرها.

الخلود أم العدم؟

لم يتعرض شولتز لهذا البعد، كما لم يتعرض له علماء النفس بصفة عامة؛ إذ يعدون هذا الموضوع موضوعاً غيبياً (ميتافيزيقياً) يترك للفلسفة الاهتمام به، وفي الواقع، فإن هذا الموضوع - وإن كان موضوعاً فلسفياً في الأساس - إلا أنه يشكل بعداً أو متغيراً يرتبط بسلوك الإنسان ويؤثر فيه.

إن الإنسان الذي يعتقد اعتقاداً جازماً بأنه مسؤول أمام الله عن سلوكه، وأنه محاسب عن أعماله في اليوم الآخر بحيث يكون مصيره الخلود في الجنة أم الخلود في النار، يكون -دون شك- مختلفاً في سلوكه عن الإنسان الذي لا يؤمن بوجود الجنة والنار أساساً، ولا بالخلود في إحداها.

وإن لوحظ عدم وجود اختلاف في الواقع بين سلوك المؤمن بالخلود وغير المؤمن به، فإن ذلك قد يرجع إلى عدة عوامل من بينها ضعف الإيمان باليوم الآخر، أو تدخل عوامل أخرى تمنع ظهور الاختلافات الجوهرية بين سلوك المؤمن وغير المؤمن بالخلود في الجنة أو النار.

هل الإنسان ذو بعد واحد (مادي فقط) أم ذو بعدين (مادي-روحي)؟

لم يورد شولتز هذه النقطة عندما استعرض صور الطبيعة البشرية عند مختلف علماء النفس بصفة منفردة كما فعل بالنسبة لأبعاد أخرى أشرنا إليها أعلاه، ولكن استعراض مختلف الآراء يبين لنا تبايناً في مواقف علماء النفس حول هذه النقطة؛ فهناك النظريات التي تهتم بالجوانب الفيزيائية والحيوية والسلوكية. أما الجانب الروحي المتعلق بالإيمان فلا يكاد يجد مناصرين كثيرين في ميدان نظريات علم النفس السائدة وإن كانت الجمعية الأمريكية لعلم النفس تعترف بعلم النفس الديني ميداناً من ميادين علم النفس الحديث.

ولعل كون الإنسان كائناً ذا أبعاد متعددة (فيزيائية)، وحيوية، وروحية، وسلوكية، بحيث ينظر إلى هذه الأبعاد في إطار تفاعلي وتكاملي، هو الذي يملأ فجوة النظريات النفسية الحديثة التي تنظر إلى الإنسان من زاوية ضيقة تقتصر على العوامل الحيوية (الوراثية، والبيوكيميائية) والمحددات الاجتماعية والبيئية، كما أشرت إلى ذلك آنفاً.

هل الإنسان ذو طبيعة خيرة مطلقاً أم ذو طبيعة شريرة مطلقاً؟

لم يتعرض شولتز لهذه النقطة في كتابه المذكور. ولعل إهماله لهذا البعد راجع إلى كون هذا الموضوع ذا طبيعة فلسفية وخلقية في الأساس، وليس موضوعاً نفسياً؛ ذلك لأن آية إجابة عن الموضوع تتضمن حكماً قيمياً، وتتضمن موقفاً خلقياً؛ وهو الشيء الذي يحاول أغلب علماء النفس تفاديه.

وهذا التفادي راجع إلى الرغبة القوية في تمييز علم النفس موضوعاً ومنهجاً عن الفلسفة وعلم الأخلاق، كما أنه راجع للأسباب المذكورة أعلاه.

ومهما يكن، فإنه لا يمكن فصل علم النفس عن الفلسفة وعن الأخلاق فصلاً كلياً. ولذا فإنني أعد النظرة الإسلامية للإنسان في هذا الجانب نظرة موضوعية؛ إذ تنظر للإنسان نظرة متعددة؛ فالإنسان ليس الخير والشر، وهو في صراع دائم مع قوى الشر ونوازعه، وتركز النظرة الإسلامية على الفروق الفردية في هذا المجال، كما تركز على تأثير الجانب الإيماني في هذه الطبيعة. ومهما كان الإنسان خيراً فإنه لن يسلم من الشر، كما أنه مهما كان شريراً فإنه لا يخلو تماماً من أي خير. ولكن نوع التربية والتعليم وتأثير المحيط والاستعدادات الحيوية والوراثية والتأثيرات الفيزيولوجية والقيم التي يؤمن بها الإنسان هي التي توجهه نحو الخير

أو الشر بحيث يغلب عليه اتجاه ما. ويضيف بعض العلماء -من المنظور الإسلامي- نزغ الشيطان وتأثيره السلبي في السلوك بحيث يدفع الإنسان إلى ارتكاب الأعمال الشريرة. وبطبيعة الحال، فإن علاج هذا النزغ ودفعه يتمثلان في الاستعاذة بالله -قولاً وعملاً- من الشيطان الرجيم. وهذا السلوك (تأثراً ودفعاً) مما لا يعد أيضاً في إطار النظريات النفسية الغربية.

وباختصار، فإن الإنسان ليس خيراً كله وليس شراً كله؛ فهو يجمع بين بعض خصائص الملائكة وبعض طبائع الشيطان؛ ولذا فهو كائن آخر ليس بملاك ولا بشيطان... إنه إنسان!

وإذا أردنا معرفة موقف علماء النفس العصبيين من موضوع ارتباط الخير والشر بالإنسان فإننا نجد ماسلو (النظرية الإنسانية) مثلاً، يؤكد أن الطبيعة البشرية الفطرية (الموروثة) جيدة وطيبة ولطيفة إلا أن ماسلو لم يبلغ وجود الشر عند البشر. أما فرويد فقد كان متشائماً إلى أبعد الحدود؛ حيث أكد "بأنه لا يرى أي خير عند البشر"، كما كان فرويد يؤمن جازماً بأن العدوانية وكذلك الجنس عبارة عن غرائز ذات أصل بيولوجي وتشكل جزءاً أساسياً من الطبيعة البشرية (شولتز، 1994).

هل سلوك الإنسان مبني على النيات والأعمال أم النيات فقط أم الأعمال فقط؟

لا يعد موضوع النية من موضوعات علم النفس؛ إذ أن هذا المفهوم مفهوم ديني يتعلق بالجانب التعبدي في السلوك، حيث إن النية موضوع أساسي في أية عبادة في الإسلام. وإذا كان هدف خلق الإنس والجن -حسب ما جاء في القرآن- هو عبادة الخالق، فإن مفهوم العبادة في الإسلام واسع يشمل كل أنواع السلوك مهما كان هذا السلوك إذا كانت النية هي التقرب لله وعبادته. وقد أوضحت هذه العلاقة عندما أوردت كلام الشاطبي في هذا الموضوع. وعلى الرغم من عدم اهتمام علم النفس الحديث بمفهوم النية، فإن على المنفس لا يغفل موضوع الدوافع والبواعث والحوافز وتأثيرها في السلوك ولكن شولتز لم يورد هذا البعد فيتصور الطبيعة البشرية عند مختلف علماء النفس، وتأثيره في السلوك وفي الشخصية.

واعتماداً على الحديث الشريف "إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى"، فإن النية أساسية ليحصل الأجر والثواب في أي سلوك يقوم به المسلم، إلا أن الاعتبار في الإسلام -خاصة في القضاء- هو

للأعمال ونتائجها وعواقبها وليس للنيات، بل إن النيات أساس التعبد وأساس حصول الأجر عند الله مهما كانت النتائج والعواقب المرتبطة بها، ويعد هذا التمييز مهماً، حتى لا يساء السلوك بحجة حسن النية، ولا يمكن أن تحاكم النيات من طرف الأشخاص مهما كان مستواهم أو طرف الهيئات مهما كانت درجتها.

وباختصار، فإن الاعتبار في الجانب التعبدي -في كل الأعمال- بالنيات التي لا يعلمها إلا الله وصاحبها، أما الاعتبار في الجانب الجزائي -عند البشر- فبالنتائج والعواقب وليس بالنيات. وكلما طابقت النيات الأعمال، وطابقت الأعمال النيات كان ذلك مدعاة للرضى، وتحصيل الأجر، وتحقيق النتائج المرجوة.

هل ماضي الإنسان أكثر تأثيراً في سلوكه، أم حاضره، أم مستقبله، أم ذلك كله؟

إذا تصفحنا النظريات النفسية الحديثة حول "الشخصية"، فإننا نجد تبايناً كبيراً بين مختلف هذه النظريات حول تأثير كل من ماضي وحاضر الفرد في بلورة شخصية هذا الفرد؛ فبعض النظريات تولي اهتماماً أكبر لتأثير مرحلة الطفولة (من الولادة إلى سن 12-13 سنة) في تشكيل الشخصية، بينما ترى نظريات أخرى أنّ الشخصية مستقلة عن الماضي، وأنه في إمكانها التأثر بالأحداث والتجارب في الحاضر، وبالآمال والطموحات في المستقبل.

ترى النظرية التحليلية مثلاً وخاصة الاتجاه الفرويدي أن ماضي الفرد هو أساس بناء الشخصية، وأن -الهو- الذي هو أكبر جزء في بنية الشخصية -بنية فسيولوجية موروثية، وأن مراحل النمو النفسي -الجنسي موروثية أيضاً. والمعروف أن النظرية الفرويدية تولي اهتماماً كبيراً لهذا الجزء من بنية الشخصية (الهو، اللاشعور)، وترى أن مراحل النمو النفسي -الجنسي التي يمر بها الطفل من الولادة إلى المراهقة هي التي تشكل وتبلور الشخصية وتحدد -إلى حد بعيد- السواء واللاسواء في حاضر ومستقبل الشخص. بل يعد فرويد السنوات الخمس الأولى هي التي تحدد نمط شخصية الإنسان عند الرشد.

وإلى جانب هذا التركيز على الوراثة، فإن النظرية التحليلية لا تنكر بأن جزءاً من الشخصية يتم اكتسابه بوساطة التعلم في المراحل المبكرة من العمر عبر التفاعل مع الأبوين خاصة.

وكما هو معروف فإن تلاميذ فرويد وأتباعه الأوائل مثل ألفرد أدلر وكارل يونغ قد انتقدوا فرويد بقوة لتصوره المتطرف للشخصية، ولتركيزه على دور غريزتي الجنس والعدوانية في تحديد أنماط الشخصية بصفة حتمية. وليس المجال هنا مجال إيراد كل هذه الانتقادات بل يكفي أن نشير أن أدلر مثلاً ينظر إلى هذا الموضوع نظرة أكثر توازناً حيث يعد تشكيل الشخصية إنما هو نتاج ماضي الفرد وحاضره، ومثل هذا الموقف موقف يونغ وإريك فروم وإريك إريكسون حيث يولي هؤلاء اهتماماً بمختلف مراحل العمر، وليس للمراحل المبكرة من العمر فقط كما فعل فرويد.

أما إذا انتقلنا إلى موقف نظرية السمات، التي يمثلها جوردن ألبورت حول هذا الموضوع، فإننا نجد أن هذه النظرية تعطي وزناً أكثر للحاضر في تشكيل الشخصية. وعليه، يرى ألبورت أن الشخصية تتأثر بأحداث الحاضر، وبنظرتها المستقبلية أكثر مما تتأثر بماضيها.

وإذا أردنا أن نعرف موقف النظرية الإنسانية من هذه النقطة فإننا نجد أن ماسلو يقف موقفاً معتاداً في هذا الموضوع؛ حيث يعترف ماسلو بأهمية خبرات مرحلة الطفولة المبكرة في تفتق الشخصية أو في عرقلة نموها إلا أنه لا يؤمن بأننا ضحايا هذه الخبرات، بل إن ماسلو من علماء النفس القلائل الذين أولوا اهتماماً كبيراً لمختلف مراحل العمر وخاصة لمتوسط العمر.

وتقف النظرية السلوكية حيال هذا الموضوع نفس الموقف المعتدل للنظرية الإنسانية؛ فرائد السلوكية المعاصرة سكينر (1904-1990) يؤكد أن خبرات الماضي تؤثر في سلوكنا وشخصيتنا مثلما تؤثر تماماً خبرات الحاضر. وبهذا فإن موقف السلوكية إزاء هذا الموضوع هو موقف معتدل أيضاً.

فما هو موقف الإسلام من هذه النقطة؟

لقد أولى الإسلام اهتماماً كبيراً لمرحلة الطفولة لما لها من أهمية في تشكيل الشخصية والسلوك، إلا أن تأمل مجمل النصوص لا يبين لنا بأن الفرد محكوم عليه بأن يبقى سجين ماضيه بل إن التجربة التاريخية الإسلامية تبين لنا بكل وضوح كيف أن الإسلام قد استطاع تغيير سلوك وشخصيات الصحابة الذين اعتنقوا الإسلام عن اقتناع واعتقاد، ووجهها توجيهاً جديداً. كما استطاع الإسلام تغيير أقوام وحضارات تغييراً جذرياً

خاصة في مجال العقيدة. وكما أن الإنسان محاسب على ماضيه، فإن باب التوبة مفتوح لتغيير عواقب هذا الماضي إن كان حافلاً بالسيئات والذنوب؛ والتغيير يكون بالعمل الصالح والإقلاع عن المعاصي والذنوب والندم على فعلها. بل إن مرحلة الطفولة في الإسلام هي مرحلة للتعلم والتدريب، وهي مرحلة يرفع فيها القلم عن الإنسان حتى يبلغ.

أما المستقبل فهو بعد همام في تشكيل شخصية المسلم؛ ذلك لأن المستقبل في الإسلام لا يمتد في هذه الحياة الدنيا فقط بل يمتد إلى اليوم الآخر. وعليه، فالمستقبل بعد همام في بلورة الشخصية المسلمة وتوجيهها للعمل الصالح في الحاضر والمستقبل.

ولعل الآية الكريمة: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ (القصص: 77)، والحكمة التي تقول: "إعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، وإعمل لآخرتك كأنك تموت غداً"، أحسن تلخيص لموقف الإسلام في هذه النقطة.

هل المحيط (التعلم) أقوى تأثيراً في سلوك الإنسان أم الوراثة؟

يقر الإسلام تأثير الجانب الوراثي (البيولوجي) في طبع الإنسان وشخصيته؛ فالإنسان مخلوق من نطفة إذا تُمِنِي، ومن نطفة أمشاج؛ أي من ماء الرجل وماء المرأة المختلطين الممتزجين. ولا شك، أن هذه النطفة - كما بينها العلم الحديث - تحمل الخصائص الوراثية التي يتأثر بها الإنسان في مختلف مراحل عمره. وفي هذا المعنى يمكن إيراد الآية الكريمة: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ (الفرقان: 54). وقد جاء في تفسير "الجلالين" بأن المقصود بالماء في هذه الآية هو المني، وجاء في التفسير أن المقصود بالنسب جهة الأب، والمقصود بالمصاهرة جانب الأم. وعليه، فإن الآية الكريمة تجمع بين الإشارة إلى كل من الجانبين الوراثي (البيولوجي) والاجتماعي (المصاهرة والتعارف وإقامة العلاقات الاجتماعية).

وإلى جانب تأثير الوراثة، فإن الإسلام يولي أهمية كبيرة لتأثير الوالدين والمجتمع في تشكيل شخصية الإنسان. وفي هذا يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "ما من مولود يولد يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو

ينصرانه أو يمجسانه كما تنج البهيمة بهيمة جمعاء هل ترى فيها من جدعاء" (متفق عليه). ويبدو من هذا الحديث أيضاً تأثير كل من الوراثة والمحيط (البيئة) في تشكيل الشخصية. وقد نعى القرآن الكريم على الكافرين اتباعهم آباءهم في السلوك عامة وفي اعتقاداتهم الباطلة خاصة دون إعمال النظر، وتحكيم العقل. وفي هؤلاء يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف: 28).³

ومن الواضح من تجارب عديدة في تاريخ الأفراد والجماعات والأمم أن شخصية الإنسان قابلة للتعلم والتغير والإبداع في مختلف مراحل العمر، وأن الأمثلة على ذلك كثيرة؛ ويكفي أن نشير إلى التغير الذي أحدثه الإسلام في نفوس أشخاص في أعمار مختلفة، وفي أحوال القبائل والأمم بمجرد اعتناق الإسلام. وعليه، فإن الإسلام لا يشجع اعتناق حتمية التأثير المطلق للماضي، بل إن الإسلام يفتح الأبواب على مصرايعها لمراجعة النفس وتعديل سلوكها وتغيير طبائعها لتتوافق مع تعاليم الإسلام. ولذا فإن الإسلام يُجِبُّ ما قبله، ويفتح بالتوبة والاستغفار آفاقاً سلوكية جديدة تعيد التفاؤل للإنسان. كما لا يبدو الإسلام مشجعاً للحتمية المطلقة للبيئة أو للتعلم؛ ذلك لأن للوراثة أهمية لا ينكرها الإسلام وللتعلم أهميته الكبيرة المؤثرة.⁴

وإذا تأملنا بمجمل النصوص، فإننا قد نلاحظ -ظاهرياً على الأقل- أن الإسلام يعطي للتعلم أو للبيئة أهمية أكبر من الأهمية التي يوليها للوراثة؛ وهذا لتأكيد مكانة الإرادة والقدرة وخطرها على التغير في المستويات: الفردية والجماعية والاجتماعية، وبين أهمية التعلم والتعليم في التغير والتغيير.

ما موقف النظريات النفسية الحديثة من هذه المسألة؟

هناك تباين كبير بين علماء النفس حول هذه النقطة إلى حد التناقض؛ فهناك من أولى أهمية: أكبر للوراثة منكرراً أي تأثير ذي قيمة للبيئة، وهناك من بالغ وأعطى للبيئة كل التأثير في بلورة الشخصية وما يتصل بها من صفات وخصائص نفسية كالذكاء والدافعية والانفعالات...

³ انظر أيضاً سورة الأنبياء: 51-54.

⁴ انظر: سورة المعارج: 19-34.

إلا أن هذا الصراع قد حُسم مؤخراً لترك المجال لموقف توافقي يعترف بتأثير كل من البيئة (المحيط) والوراثة في تشكيل الشخصية والسلوك وتعديلهما وتغييرهما.

إن هذا الموقف التوافقي -التفاعلي والتكاملي- يعترف بتأثير السمات والحاجات الفردية إلى جانب تأثير المحيط في تشكيل الشخصية والسلوك. وقد جاء هذا لموقف بعد عشرين سنة من الصراع بين علماء النفس الغربيين؛ والذي امتد من الستينيات إلى أوائل الثمانينيات (Phares 1991).

هل التفاؤل أساس الطبيعة البشرية أم التشاؤم؟

عندما خلق الله آدم، وأخبر الملائكة نبأ هذا الخلق الجديد الذي جعل في الأرض خليفة قالت الملائكة لله تعالى كيف تجعل في الأرض من يفسد فيها ويسفك الدماء. ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ...﴾ (البقرة: 30). رغم أن الملائكة تساءلت عن الحكمة من خلق آدم، فإن الله تعالى قد أمر الملائكة بالسجود لآدم إذ أن الله تعالى يعلم ما لا تعلمه الملائكة من خلق آدم.

ورغم نسيان آدم لأمر الله تعالى وهو في الجنة مع زوجته، فقد غفر له الله تعالى ذلك بعد توبته. وحتى بعد هبوط آدم وحواء من الجنة، وحتى بعد قتل قابيل لهابيل، وحتى بعد سفك الدماء والمعاصي التي ارتكبتها، ويرتكبها الإنسان في حق أخيه الإنسان ماضياً وحاضراً ومستقبلاً، فإن الإنسان -كما بينا أعلاه- ليس شراً كله وليس خيراً كله، بل إن أعماله تتراوح بين الخير والشر حسب الطبيعة (محددات بيولوجية، وراثية) أولاً، وحسب التربية والتعلم ثانياً، والإيمان والعمل ثالثاً. ورغم ضغوط الحياة وصعوباتها، فإن القرآن كله حث على العمل الصالح وأكد على ضرورة تحقيق خلافة الله على الأرض. وإذا تأملنا بعض الأحاديث الشريفة فإننا نلاحظ أن النبي صلى الله عليه وسلم ما يفتأ يحض على التفاؤل ونبذ التطير والتشاؤم. فقد جاء في الحديث الشريف: "لا طيرة وخيرها الفأل، قالوا: وما الفأل؟ قال: الكلمة الصالحة يسمعون أحدكم" (رواه البخاري في كتاب الطب، وهو حديث متفق عليه). وفي حديث آخر رواه البخاري قال "لا عدوى ولا طيرة ويعجبني الفأل الصالح الكلمة الحسنة".

وباختصار، فإن الإسلام كله دعوة للتفاؤل وعدم الاستسلام لليأس والقنوط حتى بالنسبة للذين أسرفوا في الذنوب والخطايا. وفي هذا المعنى يقول الله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (الزمر: 53).

ما موقف النظريات النفسية من هذه القضية؟

1- موقف النظرية التحليلية:

إذا نظرنا إلى موقف فرويد من هذا الموضوع، فإننا نجد متشائماً إلى حد كبير؛ فهو يصف الإنسان وصفاً سلبياً متشائماً؛ ذلك لأن الإنسان -حسب فرويد- محكوم عليه بالصراع مع قواه الداخلية (غرائزه) التي تتغلب عليه دائماً، وأن الإنسان محكوم عليه ليصبح ضحية القلق والحصر والصراع. وعلى عكس هذا لموقف المتشائم، فإن كارل يونغ متفائل بخصوص الطبيعة البشرية؛ إذ يرى أن الإنسان قابل للنمو وللتحسن والتطور. والموقف نفسه يقفه أدلر في هذا الموضوع، وكذلك إريك فروم وموراي وهورني.

2- موقف مدرسة السمات:

يصف ألبورت الإنسان وصفاً قائماً على التفاؤل؛ إذ يؤمن بقابلية الإنسان للتحسن كما يؤمن بالإصلاح الاجتماعي. أما بالنسبة لريموند كاتل (1905-000)، فإن موقفه من هذا الموضوع يختلف قليلاً عن موقف ألبورت. كان كاتل في عهد شبابه متفائلاً حول قدرة الإنسان على حل المشكلات التي تواجه المجتمع؛ وذلك باكتساب المعارف الضرورية للتحكم في المحيط، إلا أن الواقع لم يكن في مستوى توقعات كاتل، ولذا فقد استنتج بأن الطبيعة البشرية والمجتمع قد تفهقرا معاً.

3- موقف المدرسة الإنسانية:

يقف رواد المدرسة الإنسانية من هذا الموضوع موقفاً إيجابياً؛ فهم جميعاً متفائلون حول الطبيعة البشرية. وعليه، فهم يركزون على الصحة النفسية بدلاً من الاضطرابات النفسية، وعلى النمو بدلاً من الجمود والركود، وعلى الجوانب الإيجابية عند الإنسان بدلاً من جوانب ضعفه وعيوبه.

4- موقف المدرسة السلوكية:

على الرغم من اعتقاد سكينر وبقية السلوكيين أن المحيط هو الذي يتحكم في سلوك الإنسان، إلا أنهم يؤكدون بأن الإنسان مسؤول عن تصميم هذا المحيط وتشكيله بجوانبه المختلفة: بنايات وآلات وملابس ومأكولات ومؤسسات حكومية، ونظام اجتماعي ولغة وعادات... وبناء عليه، ففي استطاعة الإنسان إدخال تعديلات على هذا المحيط لتحقيق ما فيه مصلحته.

ونظراً لهذا، فإن الإنسان يصبح في الوقت نفسه متحكماً، ومتحكماً فيه (مراقباً). وبتعبير آخر، فإن الإنسان -حسب سكينر- هو الذي يصمم ثقافة متحكمة إلا أنه يصبح بالتالي إنتاجاً لتلك الثقافة.

5- موقف المدرسة المعرفية:

ترى هذه المدرسة ممثلة براندها جورج كيلبي (1905-1967) بأن الإنسان كائن عاقل قادر على تشكيل مفاهيم يستطيع رؤية العالم من خلالها، ويستطيع تشكيل تناول (موقف) متفرد لرؤية الواقع. ويعتقد كيلبي بأن الإنسان هو الذي يرسم قدره (مصيره) وليس (الإنسان) ضحية القدر.

هل يسعى الإنسان إلى تحقيق التوازن أم هو في نمو مستمر؟

يبدو من الآيات الكريمة أن الإنسان في نمو مستمر من الناحيتين الجسمية والنفسية- الوجدانية والعقلية) إلى أن يبلغ أشده في الأربعين ثم يبدأ -بصفة تدريجية- في الانتكاس من الناحيتين الجسمية والنفسية أيضاً إلى أن يموت.⁵ يقول تعالى: ﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ (يس: 68).

5 لا ينطبق هذا القانون العام على الأنبياء والرسل الذين يأتي الوحي الإلهي ليزيد قدراتهم العقلية والنفسية نفاذاً وسداداً.

ورغم هذا القانون العام في النمو، فإن الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة كلها تحث على طلب المعرفة وتهذيب النفس وترقيتها في مختلف مراحل العمر؛ وإن كانت المسؤولية تبدأ شرعاً بالبلوغ وتنتهي بالموت. أما موقف مختلف مدارس علم النفس فهو كما يأتي:

1- **موقف المدرسة التحليلية:** يرى فرويد أن الإنسان مدفوع لإعادة التوازن والحفاظ على حالة من التوازن الفسيولوجي؛ وذلك لحماية العضوية من التوتر والحصر. وهذه الدافعية غريزية حيث تدفع العضوية باستمرار وبشكل دوري إلى الإحساس بالتوتر، وبالتالي إلى العمل على خفض هذا التوتر، وعلى الحصول على اللذة. وهكذا، وعلى عكس هذا الموقف، فإن كارل يونغ يرى بأن الإنسان في نمو مستمر؛ ويعتقد يونغ بأن أهم التغيرات في الشخصية تبدأ في الظهور عند منتصف العمر بين 35-40 سنة.

أما أدلر فيعتقد بأن الإنسان في سعي دائم (مجاهدة) لتحقيق التفوق (نمو مستمر)؛ وأن هذا السعي من شأنه أن يزيد التوتر بدلاً من خفضه. وعلى عكس رأي فرويد، فإن أدلر لا يرى بأن الدافع الوحيد للإنسان هو خفض التوتر؛ ذلك لأن السعي أو المجاهدة من أجل التفوق يتطلب صرف أكبر قدر من الطاقة والجهد؛ وهذه الحالة عكس حالة التوازن التي تتميز بخفض التوتر. ويؤكد أدلر أن السعي من أجل تحقيق التفوق عملية فردية ومجتمعية.

وباختصار، فإن أغلب رواد التحليل النفسي - ما عدا فرويد - يؤكدون على عملية النمو بدلاً من التوازن بوصفه من خصائص الطبيعة البشرية، والشخصية الإنسانية.

2- **موقف مدرسة السمات:** يرى ألبورت بأن الهدف الضروري للحياة ليس هو خفض التوتر كما كان يرى فرويد بل رفع حالة التوتر التي تدفع الإنسان للبحث عن أهداف وتحديات جديدة. وعندما ينجح الإنسان تحدياً ما، تتشكل عنده دافعية لإنجاز تحدٍ آخر. والمجزي في العملية - حسب ألبورت - ليس الإنجاز في حد ذاته بل عملية الإنجاز، وكذلك الأمر المجاهدة لإنجاز هدف ما؛ فالمجزي هو المجاهدة (عملية السعي) وليس تحقيق الهدف. وعليه، فالإنسان في حاجة مستمرة لأهداف جديدة لحفزه ودفعه، وللحفاظ على مستوى ضروري من التوتر في الشخصية.

3- **موقف المدرسة الإنسانية:** يعتقد رواد هذه المدرسة أن الإنسان في نمو مستمر؛ فالإنسان - حسب ماسلو- تدفعه حاجات فطرية تتدرج في شكل هرمي من حاجات أساسية (فسيولوجية) من مآكل ومشرب وتناسل ونوم وتنفس إلى الحاجة إلى الأمن وإلى الحاجة إلى الانتماء والحب وإلى الحاجة إلى التقدير وانتهاءً بالحاجة إلى تحقيق الذات وهي أعلى الحاجات. ولا تتحقق هذه الحاجة الأخيرة حسب -ماسلو- إلا عند منتصف العمر كما أنها لا تتحقق إلا عند نسبة ضئيلة من الأشخاص الناجحين.

4- **موقف المدرسة السلوكية:** لم يتعرض رواد المدرسة السلوكية للدوافع الداخلية أو للتوتر الداخلي الذي يدفع الإنسان لتحقيق أهداف أو لإنجاز ما؛ ذلك لأن تشكل السلوك حسب السلوكيين يتم بالتعلم، وأن سلوك الإنسان هو نتيجة التعلم الذي تشكله عوامل خارجية. وينبني على هذا رفض وجود أية عوامل فطرية (وراثية) أو داخلية (ذاتية) تدفع الإنسان لإنجاز هدف ما. وإذا كانت هناك أية أهداف فليست - حسب رأي سكينز- أهدافاً فردية بل هي أهداف اجتماعية. ورغم تأكيد السلوكيين على تشكل السلوك الأساسي في مرحلة الطفولة، فإنهم لا ينفون إمكانية تعديل وتغيير السلوك في مرحلة الرشد، واكتساب أنماط جديدة من السلوك.

وباختصار، فإن موقف السلوكيين من هذا الموضوع (التوازن-النمو) هو موقف معتدل.

هل كل إنسان متفرد (متميز) بخصائصه وشخصيته أم هناك بجانب التفرد عالمية وشمولية في الطبيعة البشرية وأبعاد الشخصية؟

يتفق أغلب علماء النفس الذين كتبوا في موضوع الشخصية على أن من مميزات الشخصية: التمايز والثبات عبر الزمن، إلا أنهم اختلفوا حول الخاصية المتمثلة في التفرد/ العالمية بوصفه من خواص الطبيعة البشرية هل هي متميزة أم عالمية.

1- **موقف المدرسة التحليلية:** يعترف فرويد بعدد (خاصية) العالمية في الطبيعة البشرية حيث يرى بأن كل إنسان يمر بمراحل النمو النفسي -الجنسي نفسها، وأن كل إنسان تدفعه نفس القوى والغرائز (الهو).

ورغم هذا فقد أكد فرويد أن جزءاً من الشخصية متفرد ومتمايز. وعليه، فإن الأنا والأنا الأعلى - وإن كانا يؤديان الوظائف نفسها بالنسبة لكل شخص - إلا أن محتوَاهما يختلف من شخص لآخر؛ ذلك لأنهما تشكلا عبر تجارب شخصية يمر بها كل فرد على حدة. أما يونغ فيقف موقفاً وسطاً من هذا الموضوع مثل فرويد تماماً إلا أنه يختلف عنه في شرح هذا البعد في الشخصية. يرى يونغ أن هناك تمايزاً في الشخصية حتى منتصف العمر، أما بعد ذلك فهناك عالمية في تشكل الشخصية حيث لا تظهر بعد منتصف العمر أية أنماط تمايزة للشخصية - حسب يونغ -. وعكس موقفي فرويد ويونغ، فقد أكد أدلر بوضوح خاصية التمايز والتفرد في الشخصية. ويقف فروم من هذا الموقف موقفاً وسطاً حيث يعترف بأن هناك بعد العالمية (الشمولية) في الشخصية؛ ويتمثل ذلك في خاصية اجتماعية مشتركة ضمن إطار ثقافة ما، وفي الوقت نفسه يعتقد فروم بأن كل شخص متميز عن الآخرين.

2- **موقف مدرسة السمات:** يرى ألبرت بأن كل شخص متميز عن الآخرين؛ ذلك لأن لكل فرد سماته واستعداداته التي تحدد بدقة شخصيته وتميزه عن الآخرين. ورغم هذا الموقف، فإن ألبرت لا ينكر وجود سمات مشتركة بين الناس.

3- **موقف المدرسة الإنسانية:** يعتقد ماسلو بأن الحاجات والدوافع مشتركة بين الناس (عالمية) إلا أن أساليب إشباع هذه الحاجات تختلف من شخص لآخر؛ ذلك لأن هذا السلوك يتم تعلمه. وعليه، فإن ماسلو وكذلك روجرز يقفان موقفاً وسطاً في هذا الموضوع.

4- **موقف المدرسة السلوكية:** نظراً لأن تشكل السلوك يتم بالتعلم، فإن كل شخص يتميز عن الآخرين؛ ذلك لأن التجربة هي التي تشكل السلوك وأن كل الأشخاص لهم تجارب مختلفة وخاصة أثناء الطفولة. وعليه، فإننا لن نجد شخصين يسلكان بدقة نفس السلوك؛ أي: أن التمايز هو الخاصية الأساسية للطبيعة البشرية وللشخصية الإنسانية.

5- **موقف الإسلام:** من الواضح - كما جاء في القرآن الكريم - أن البشر قد خلقوا أصلاً من نفس واحدة. وقد ورد هذا التأكيد أربع مرات في القرآن الكريم: سورة النساء: 1، وسورة الأنعام: 98، وسورة الأعراف: 189، وسورة الزمر: 6. ورغم أن هذا الخلق من نفس واحدة إلا أن الإسلام يقر التفاوت

والتمايز بين البشر سواء كان ذلك في الناحية الجسمية أم النفسية أم الإثنين معاً، كما أن المسؤولية عن الأعمال والسلوك - في الإسلام - مسؤولية فردية. وفي هذا المعنى يقول تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (سورة الحجرات: 13). يمكن أن نفهم من هذه الآية أن التمايز قائم على المستويين: الفردي والمجتمعي (قبائل وشعوب). وقد جعل الله تعالى اختلاف الألوان والألسن آية لأولي الألباب. يقول تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَالْوَالِدَاتُ إِذَا فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ﴾ (الروم: 22). ويقول تعالى في تفضيل بعض الناس وتمايزهم عن بعض، أو ما يسمى حديثاً بالفروق الفردية: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَمَىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلَكُهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: 247).⁶

يمكن أن نستنتج من مجموع هذه الآيات أن الطبيعة البشرية والشخصية الإنسانية قائمة على التمايز وإن كان أصلها واحداً (من نفس واحدة)، وأن هذا التمايز قائم على المستويات الجسمية والنفسية والروحية (عند الفرد)، وقائم على مستوى التنظيمات الاجتماعية والعرقية (قبائل وشعوب وألوان وألسنة). وأخيراً، فإنه من الممكن تصور نموذج للطبيعة البشرية من منظور إسلامي وفق الأبعاد والخصائص المذكورة أعلاه. ومن أهم مميزات هذا النموذج ما يأتي:

- 1- تأكيد الجانب الروحي، وتأثير هذا الجانب الروحي بالمفهوم الإيماني في السلوك.
- 2- هناك علاقة مباشرة بين الإيمان والسلوك، ولا يمكن فصل أحدهما عن الآخر.
- 3- هناك تكامل وتفاعل بين الجوانب الروحية والبيولوجية والفيزيائية في تكوين شخصية الإنسان وسلوكه.

4- الإنسان مخير في بعض القضايا ومجبر في أخرى في الوقت نفسه.

5- يبدو أن البيئة أو المحيط أكثر تأثيراً من الوراثة رغم الاعتراف بتأثير الوراثة أو بالجانب (البيولوجي) في تشكيل السلوك والشخصية.

6- تركز النظرة الإسلامية على أهمية النمو والتغير والتعلم في تشكيل الشخصية وبلورة السلوك بدلاً من التركيز على عملية تحقيق التوازن التي تهدف أساساً إلى خفض التوتر والحصول على اللذة.

7- على الرغم من الجوانب السلبية في شخصية الإنسان وسلوكه فإن المنظور الإسلامي للشخصية أكثر تفاعلاً من موقف بعض علماء النفس. ويدعو المنظور الإسلامي للتفأؤل ونبذ التطير والتشاؤم، وعدم الاستسلام لليأس والقنوط، ولتأثير الأحلام المرعجة.

8- رغم تأكيد المنظور الإسلامي على أصل الخلق من نفس واحدة، فإن التمايز على كل المستويات الروحية والنفسية و (البيولوجية) و (الفيزيائية) أهم من أوجه التشابه أو النمطية في الشخصية والسلوك. والنظرة الإسلامية كلها دعوة للتنافس بين الناس في أوجه الخير والعمل الصالح.

9- حاضر ومستقبل الشخصية والسلوك من المنظور الإسلامي أهم من الماضي، بل إن مرحلة الطفولة وحتى البلوغ لا تترتب عليها أية محاسبة من الناحية الشرعية. ولكن هذه المرحلة من النواحي التربوية ومسؤولية الوالدين والمؤسسات الاجتماعية مرحلة أساسية لم يهملها الإسلام بتاتاً.

خاتمة

من الصعب وضع خاتمة لموضوع حول الطبيعة البشرية من منظور مقارن؛ فالخاتمة إذن للمقال وليس للموضوع. ومهما يكن، فإني لا أدعي بأني وقّيت الموضوع حقه، خاصة وأن تصورات الطبيعة البشرية - كما أشرت إلى ذلك - متنوعة ومتعددة المذاهب الفلسفية والفكرية والدينية، والمدارس النفسية والاجتماعية، والموضوع في حاجة إلى نقاش كبير وإثراء مستمر وبحث أكثر عمقاً ودقة. وقد أغفل المسلمون لمدة طويلة دراسة خصائص الطبيعة البشرية، وعلوم الإنسان رغم أهمية هذه العلوم في البناء الحضاري، ورغم أن الإنسان هو محور الرسالة التي جاء بها القرآن الكريم؛ فالرسالة للإنسان ليقوم خلافة الله على الأرض.

ورغم زعمي في بداية الدراسة بأنني سأقوم بمقارنة مختلف التصورات والنظريات حول الطبيعة البشرية من "منظور إسلامي - نفسي - مقارن"، إلا أنني لم أبين دائماً وبصفة واضحة أوجه الشبه والاختلاف بين هذه التصورات والنظريات، وتركت ذلك أحياناً لإدراك القارئ واستنتاجه.

وعلى كل، فإن هذه الدراسة قد تساعد المهتمين بهذا الموضوع على وضع افتراضات وفرضيات حول الطبيعة البشرية من منظور نفسي بصفة عامة، وما يتصل بهذه الطبيعة من نظريات في الشخصية الإنسانية والسلوك الاجتماعي بصفة خاصة بحيث تكون هذه الفرضيات قابلة للفحص والبحث (الإمبيرقي) أو للبحث المنطقي أو لكليهما، وقابلة للمقارنة بين الثقافات والأديان. ويمكن أن تشكل هذه الدراسة قاعدة نظرية لدراسات أخرى في الموضوع، ولدراسات نفسية نظرية و (إمبيريقية) تتصل بعلم نفس الشخصية والسلوك الاجتماعي من منظور إسلامي.

وفي الواقع، فإن جهود أسلمة علم النفس ينبغي أن تبدأ بوضع الأسس النظرية لتصور الطبيعة البشرية من الناحية النفسية من جهة، وتحديث موضوع علم النفس ومنهجه أو مناهجه من جهة أخرى. ولا يخفى أن تصور الطبيعة البشرية من الناحية النفسية لا يمكن فصله عن تصور هذه الطبيعة دينياً وفلسفياً وأخلاقياً إلا فصلاً منهجياً بهدف التخصص على أن يكون هذا التخصص متكاملًا مع التخصصات الأخرى.

وأخيراً، فإن هذا البحث في حاجة إلى دراسات وبحوث أخرى لتوضيح مواقف مختلف (المدارس الإسلامية والعلماء المسلمين) من مجمل القضايا المرتبطة بتصور أبعاد الطبيعة البشرية كما أن هذا الموضوع في حاجة إلى تضافر جهود علماء النفس المسلمين، وغيرهم لوضع الأسس النظرية لفهم الطبيعة البشرية فهماً قابلاً لاستنباط النظريات والتطبيقات منه.

قائمة المراجع

1- المراجع العربية:

- أحمد أكبر، (1990): نحو علم الإنسان الإسلامي، ترجمة عبد الغني خلف الله، هيرندن: المعهد

العالمي للفكر الإسلامي، وعمان: دار البشير.

- أمير عبد العزيز (1984): الإنسان في الإسلام، عمان: دار الفرقان.
- بركات، أحمد لطفي (1981): الطبيعة البشرية في القرآن الكريم، الرياض: دار المريخ.
- بنت الشاطئ: عائشة عبد الرحمن (1982): القرآن وقضايا الإنسان، بيروت: دار العلم للملايين.
- سيد مرسي، محروس (1988): التربية والطبيعة الإنسانية في الفكر الإسلامي وبعض الفلسفات الغربية، القاهرة: دار المعارف.
- الشاطبي، أبو إسحاق (توفي 890هـ): الموافقات في أصول الشريعة، ج 2، دون تاريخ، ودو ناشر.
- العاني، نزار (1995): الشخصية الإنسانية في الفكر الإسلامي، (مخطوط).
- العقاد، عباس محمود (دون تاريخ): الإنسان في القرآن الكريم، القاهرة: دار النهضة.
- الفاروقي، إسماعيل (1984): نظرية الإنسان في القرآن الكريم، التوحيد، س 2: 94، رجب- شعبان 1404هـ.
- السوطي، جلال الدين: تفسير الجلالين للقرآن الكريم (برنامج في الكمبيوتر).
- 2- المراجع الإنجليزية.

-Buchanan, j.(1990): the philosiphy of human Nature, UMI out-of print books on demand, Michigan.

-Chany, N. (1990): Six Images of Human Nature, prentice Hall, Englewood, New Jersey.

-Phares, E. (1991): Introduction to personality, Harper Collins Colleges Pub. New York.

-Stevenson L. (1987): Seven theories of Human Nature, 2nd. ED. Oxford University Press, Oxford.

-Schultz, D. & Schultz, E.S. (1994): Theories of Personality, 5th. Ed, Brooks/Cole Publishing Co., California.

-Wrightsman, S.L. (1992): Assumptions about human Nature, 2nd. Ed., Sage Publications. Newbury Park (USA).